أ.د. جلال درخشه

مدير قسم العلوم السياسية في جامعة الامام الصادق

دراسات ومقالات

# نظرية الوحدة الاسلامية في آراء المصلحين في التاريخ المعاصر(*)

## تمهيد

ان من المراحل الحرجة التي مرت بها الامة الاسلامية في تاريخها الحديث، والتي جعلتها عرضة لمخاطر حقيقية، تلك المرحلة التي واجهت فيها الحضارة الغربية بكل ما طرأها من تغييرات جذرية شملت سائر المجالات العلمية والفكرية والصناعية، ففي الوقت الذي كان الاوروبيون يضعون حجر الاساس لحضارة متقدمة، لم يبدِ العالم الاسلامي أي اهتمام بهذه التحولات، وظل بعيداً عما يجري ويدور من حوله، رغم المشاكل العديدة التي كان يعانيها، نظير الجهل وتشتت الامة واستبداد الانظمة.

واستمر واقع المسلمين على تلك الحالة بل وازدادت سوءاً، الى أن فوجئوا باجتياح نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨م، فهاجت المشاعر الراكدة، وتحركت الافكار الجامدة، واصبحت الامة الاسلامية على عصر جديد، هذا

والاستعمار الغربي يواصل زحفه في أرجاء البلدان الاسلامية وبسرعة خطيرة، ولسرد تفاصيل الاحداث المؤلمة ابان هذا الزحف مقام آخر.

لقد كان نابليون يعد في واقع الامر ممثلاً للحضارة الغربية الحديثة وبكامل صفاتها، وقد اعتبر هو بنفسه ان ما يقوم به دعوة للمسلمين من أجل «التحضر».

ان العالم الاسلامي الذي كان يعاني من آثار التخلف السياسي والانحطاط العقائدي في تلك الفترة، وجد نفسه على حين غرة أمام خصم مقتدر يمتلك طاقات هائلة ومتنامية ولا يكاد يخفي نواياه وأطماعه التوسعية.

لقد كان لسلسلة الهجمات المتواصلة التي شنها الغربيون على العالم الاسلامي الاثر البالغ على كافة شؤون المسلمين، وتركت بصماتها بشكل واسع على شتى المجالات، الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وبنحو لم يسبق له مثيل فيما تعرضوا له قبل ذلك، فكان أن تنبه المسلمون لخطورة الموقف، وان الغرب يقوم باستهدافهم مستخدماً سائر امكاناته العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية، وأدركوا انهم ازاء تهديد حقيقي يطال عمق ثقافتهم وعقائدهم واسس بنيانهم الاجتماعي، وهكذا تولدت ردود افعال مختلفة لدى المسلمين يمكن ملاحظة آثارها سواء على مستوى الحكومات والانظمة السياسية أو في الطبقة الاجتماعية والاوساط الفكرية.

وبصورة عامة، يمكن درج تلك المواقف في ثلاثة اتجاهات اختلفت باختلاف نوعية الخطاب إلى:

١ـ خطاب وجد في العمل بمفردات الحضارة الغربية سبيلا للخروج بالعالم الاسلامي من واقعه المتأزم الذي يعيشه، ورأى انها كفيلة بمعالجة مشاكل المسلمين وخاصة التخلف.

٢- الخطاب القومي، الذي كان لا يخلو من نقاط عديدة من عناصر الثقافة الغربية.

٣- الخطاب الاسلامي.

على ان كل خطاب كان يشمل في حد نفسه أساليب متنوعة.

فالمنظرون للتيار الاول رأوا ضرورة التبعية المطلقة للحضارة الغربية، معتقدين بان الغرب ليس خصماً للمسلمين، بل ان المسلمين هم المتخلفون وينبغي لهم الاستفادة من تجارب الغرب والاقتداء به بأفكاره في سبيل التطور والتقدم ومن اجل القضاء على مظاهر التخلف، وبذا يتضح ان من مميزات هذا التيار هو التقليد الاعمى للثقافة الغربية، وانعدام الثقة بالذات، واللاهوية، وفصل الدين عن المجال السياسي. وأمثالها. وقد مثل هذا التيار البعض من أمثال: الطهطاوي، وشبلي شميل، وطه حسين، وملكم خان، وآخوند زادة، وتقي زادة، وسرسيد أحمد خان، وغيرهم. وقد أدى هذا الاتجاه الى شيوع التغرب في المجتمعات الاسلامية.

وأما بالنسبة الى التيار الثاني فانه يتمحور حول ضرورة العودة الى القيم والمباديء الوطنية والقومية. ويلاحظ أن اللجوء الى هذه الاطروحة في العالم الاسلامي في بعض الحالات – وخاصة المتشددة منها – جاء كرد فعل تجاه الاستعمار، على الرغم من وجود نقاط تباين بينها وبين المباني الشرعية، كما ويلاحظ ان الميول الى هذا الاتجاه كانت بصورة اكثر في دول كايران ومصر.

وأما التيار الثالث فهو يشدد على ضرورة الرجوع الى التعاليم الاسلامية الحقة، وعد الدين الاسلامي أساساً لهوية المجتمعات الاسلامية، والحضارة الاسلامية قواماً لها، وان هذا خيار لابديل عنه لمعالجة الازمات التي تمر بالامة الاسلامية، وسبيل لا مفر منه للتصدي للاستعمار الغربي، كما يؤكد على ضرورة نبذ العادات والتقاليد الفاسدة والنهوض بالامة الى المستوى الامثل على اساس القيم والمبادئ الاسلامية.

وقد باشر المنظرون لهذا الاتجاه الى نقد ركائز الفكر الغربي الحديث وما أفرزته من قيم اخلاقية، وما اتسمت به من طبيعة استعمارية توسعية، مؤكدين على ان من الحري بالمسلمين – عرضاً عن الانخداع بمفاتن الحضارة الغربية – التوجه الى دينهم الاسلامي الخالص من أي خرافة وبدعة او تحريف.

ويعبّر الدكتور الحائري عن هذا الخطاب بـ «خطاب القومية الاسلامية» في مقابل الاستعمار الغربي[١].

ويأتي في مقدمة أولويات هذا الخطاب الاهتمام بالوحدة الاسلامية وحث المسلمين على الاغماض عن اختلافاتهم المذهبية والطائفية في سبيل الحفاظ على كيان الامة الاسلامية وقيمها ومبادئها، وكذلك التصدي للغربيين وقدراتهم العسكرية والاقتصادية والسياسية، باعتبار ان الصراع مع الغرب يستلزم وحدة كلمة المسلمين وترك الاختلافات جانباً والوقوف صفا واحداً ازاءه[٢].

من جهة اخرى يؤكد هذا الاتجاه على اهمية العلم في سائر المجالات جنباً الى جنب مع الدين وذلك استجابة لمتطلبات العصر وضروراتها. وهكذا يقوم هذا الاتجاه بفصل الايجابيات التي تتمتع بها الحضارة الغربية والمتمثلة بالجانب العلمي عن سلبياتها المتمثلة بقيمها الثقافية ونزعتها الاستعمارية، فيؤكد على ضرورة الاستفادة من تجارب الحضارة الغربية في المجالات العلمية كافة في سبيل تعزيز قدرات المسلمين والنهوض بالبنية العلمية للمجتمعات الاسلامية الى المستوى الامثل، على ان يكون ذلك في اطار الثوابت الدينية.

وهنا كان على هذا الخطاب الاجابة على عدة تساؤلات هامة، فإلى أي مدى يمكن للاسلام – كدين وتراث – ان يستجيب لمتطلبات الانسان العصري؟ وقد بذل المنظرون لهذا الاتجاه جهوداً كبيرة من أجل بيان الدور الفاعل الذي

يمكن للاسلام أن يؤديه في شتى ميادين الحياة العصرية للمسلمين، واثبتوا ان الدين الاسلامي يمتلك من المقومات ماهي جديرة باحتواء ازمات الامة الاسلامية ومواجهة تحديات العصر الحديث.

ومما لاشك فيه ان مؤسس هذا التيار وزعيمه الاول هو السيد جمال الدين الحسيني الاسد آبادي المعروف بالافغاني، وتبعه مصلحون آخرون أمثال تلميذه الشيخ محمد عبده، والسيد عبد الرحمن الكواكبي، واقبال لاهوري، وغيرهم ممن حملوا على عواتقهم مسؤولية تواصل هذا الاتجاه الفكري، والذين «اعتبروا وحدة العالم الاسلامي من أهم اهدافهم وتطلعاتهم، وبذلوا جهداً عظيماً من اجل التوحيد بين الشيعة والسنة» حسب الدكتور عنايت[٣].

ورغم وجود ثمة اختلافات في اوساط هذا التيار من حيث الاسلوب الفكري والسياسي، إلا ان الاتجاه العام لهذا التيار كان واحداً وهو السعي لاحياء التفكر الديني.

وهدفنا في هذه الدراسة هو مراجعة وتحليل الافكار الوحدوية حسب رؤية ثلاثة من أبرز المصلحين في التاريخ المعاصر؛ وهم السيد جمال الدين الاسد آبادي والشيخ محمد عبده والسيد عبدالرحمن الكواكبي.

١ـ السيد جمال الدين الاسد آبادي (١٢٥٤ – ١٣١٤هـ / ١٨٣٩-١٨٩٧م) لاشك في ان السيد جمال الدين الاسد آبادي (زعيم حركة الاصلاح الديني) كان يدرك بوضوح وجود مشاكل عديدة في العالم الاسلامي وفي سائر المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، حيث كان يسعى بشكل متواصل لايجاد سبل لمعالجتها، وقد لاحظ وجود علاقة وثيقة بين تلك المشاكل من جهة وبين تشتت الامة الاسلامية من جهة اخرى، فأيقن ان السبيل الوحيد لنهضة الامة يكمن في اتحاد المسلمين وتلاحمهم، ومن هذا المنطلق بذل جهداً كبيراً في سبيل الدفع بفكرة الوحدة الاسلامية قدماً، ورغم انه لم يرَ نتائج فعالياته

وجهوده أثناء حياته، إلا ان افكاره في هذا المجال قد تركت بصماتها على طبيعة الفكر السياسي الاسلامي طوال القرن المنصرم.

وبمتابعة آثار السيد جمال الدين نخلص الى انه كان يرى ان أساس تشتت المسلمين وتمزق كيانهم يكمن في ثلاثة عوامل رئيسية، وهي عبارة عن:

١ـ فساد الحكومات والانظمة الاسلامية وابتعادها عن بعضها البعض.

٢- ابتعاد المسلمين عن الاسلام الخالص.

٣- التدخل الاجنبي في شؤون العالم الاسلامي.

وفي هذا السياق يقول الاستاذ مرتضى مطهري: «كان السيد جمال الدين يرى ان الصراع مع هذه العوامل يستوجب ان يكون المسلمون على اطلاع تام بمجريات الاحداث السياسية والمشاركة الفاعلة فيها، وكان يعتقد ان السبيل الى استعادة المسلمين لعظمتهم وأمجادهم السابقة يكمن في العودة الى الاسلام كما كان عليه ابتداءً، أو بعبارة اخرى: اعادة روح الاسلام الواقعي الى الكيان المحتضر للمسلمين، وان هذا لا يكون إلا بازالة الخرافات والبدع عن الدين الاسلامي، كما حرص على نشر فكرة الوحدة الاسلامية، وكان على بصيرة من نفاق المستعمرين وايادیهم الخفية والمرئية الساعية الى اثارة الفتن الطائفية وغير الطائفية بين المسلمين ويقوم بالكشف عنها[٤].

وسنقوم هنا بدراسة وتحليل تلك العوامل الثلاثة باختصار:

**ألف – فساد الحكومات والانظمة الاسلامية:**

من احدى المقالات المهمة للسيد جمال الدين مقال بعنوان «علل إنحطاط المسلمين وسكونهم » نشر في جريدة العروة الوثقى، يقيّم من خلاله الواقع الفعلي للمسلمين – آنذاك – ويقارنه بحالة المسلمين في صدر الاسلام، ثم ينتقد عدم حساسيتهم تجاه ما يتعرض له اخوانهم من ظلم واضطهاد وتباطؤهم عن نصرتهم، معتبراً ان ما أدى بالمسلمين الى هذا الوضع المتردي

هو فساد الانظمة والحكومات المتعاقبة وانشغالها في الصراع من اجل السلطة بعيدا عن هموم ومشاكل المجتمع، وعدم مراعاتها حرمة الخلافة الاسلامية، ثم يقول: «تفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلاف الى وظيفة الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة»[٥].

وفي مقال آخر له بعنوان «الوحدة الاسلامية» يقول: «فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة، والسلاطين في جنس واحد، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات، فشغلوا افكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عمّا نالوا من العلوم والصنائع، فضلا عن التقصير في طلب ما لم ينالوا منها، والاقصار دون الترقي في عواليها، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام، وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرّق الكلمة وانشقاق العصا، فَلَهوا بأنفسهم عن تعرض الاجانب بالعدوان عليهم.. ولكن ضرب الفساد في نفوس اولئك الامراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهدى، وضلّت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة واطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجأو للاستنصار به وطلب المعونة منه على ابناء ملّتهم، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل»[٦].

ويلاحظ ان السيد جمال الدين كان يتردد على الحكام والمسؤولين في البلدان الاسلامية لغرض اصلاح ما يمكن اصلاحه في انظمتهم، فنراه يقيم علاقات مع البلاط العثماني بهدف القضاء على الفساد المتفشي في الدولة

العثمانية والاستفادة من امكانياتها في سبيل الحفاظ على مصالح المسلمين ومنافعهم، لكنه لم يتوصل الى أي نتيجة.

وفي آخر رسالة من الباب العالي الى الايرانيين يقول السيد جمال الدين: لقد حال سيف الشقاوة دون رؤيتي نهضة الامم الشرقية، وان يد الجهالة لم تمهلني لسماع صوت الحرية من حلقوم المشرق، فياليتني كنت قد زرعت تمام بذور أفكاري في مزرعة افكار الشعب الصالحة، وياليتني لم أقم بغرس تلك الافكار المثمرة والمفيدة في الاراضي الملكية المالحة، مازرعته في تلك المزرعة قد نبت ورشد، وما غرسته في تلك الاراضي القاحلة قد فسد، ولم تلق نصائحي التي كنت ابتغي منها خيراً آذاناً صاغية عند سلاطين المشرق جهالةً منهم وطمعاً[٧].

**ب – انحراف المسلمين عن الاسلام الخالص وتشتتهم:**

تطرق السيد جمال الدين في أغلب كتاباته وخطاباته الى قضية ابتعاد المسلمين عن التعاليم الحقيقية للاسلام ولجوئهم الى الخرافات والبدع، وأشار مراراً الى خطورة هذا الامر، وفي مقال مشهور له بعنوان «سنن الله في الامم وتطبيقها على المسلمين»[٨]. يشير الى ان سبب الانتصارات الاسلامية في المراحل الاولى يرجع الى عاملين اساسيين:

**الأول:** تمسّك المسلمين بالتعاليم الحقيقية للاسلام، والثاني: اتحاد المسلمين وتماسكهم، ثم يظهر أسفه على الواقع الفعلي للمسلمين رغم ما يتمتعون به من طاقات بشرية وثروات هائلة، ويعتبر ان سبب ما يواجهونه من اخفاقات متتالية يرجع الى فساد المجتمعات الاسلامية والانحطاط الفكري والاخلاقي للمسلمين، ثم يقول: «هل نسوا ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته، لا يبخلون في سبيله بمال، ولا يشحون بنفس، فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً، وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان، لا بماله ولا

بروحه؟»[٩].

وبالاشارة الى الآية الشريفة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يؤكد ان المسلمين هم السبب لما آلت اليه حالتهم، ويقول: «أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى ان الامم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على اساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان، ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغيّر اولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الامم السابقة، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحلّ بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول.. واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين»[١٠].

ومع هذا كلّه، لا يفقد السيد جمال الدين الامل، ويقول: «ان الخير في هذه الامة الى يوم القيامة، كما جاءنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكّروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلفتوهم الى عهد الله الذي لا يخلف، لرأيت الحق يسمو، والباطل يسفل، ولرأيت نوراً يبهر الابصار، وأعمالاً تحار فيها الافكار، وان الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الاقطار هذه الايام، تبشرنا بأن الله قد أعدّ النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوحد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريباً»[١١].

### ج – النفوذ الاجنبي والتدخل في شؤون المسلمين:

في الوقت الذي كان السيد جمال الدين يعتقد ان اساس تمزق الامة

الاسلامية وأفول نجمها يرجع بالدرجة الاولى الى عوامل داخلية، إلا انه لم يغفل على الاطلاق عن مدى تأثير العوامل الخارجية، فكان يرى ان من جملة المنافذ التي استطاع الغرب من خلالها التوغل في العالم الاسلامي اولئك المتغرّبين، المقلدين للثقافة الغربية، والمروجين لها في المجتمعات الاسلامية على قلة معلوماتهم حولها، وتواضع احاطتهم بالواقع الاجتماعي والاولويات العامة، ويقول: «علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل امة المنتحلين أطوار غيرها يكوّنون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس... ويصير اولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم»[١٢].

ولابد من الاشارة هنا الى ان قضية الاستعمار الغربي وما كان يشكله من خطورة من خلال تحكمه بمقدرات المسلمين هي من ابرز العوامل التي ادت بالسيد جمال الدين الى طرح فكرة الوحدة الاسلامية، على اساس انه طالما بقي المسلمون متفرقين فانهم سيكونون ضعفاء وعاجزين عن مجابهة الاعداء، وهكذا نلاحظ انه يؤكد على ضرورة مقاومة الاستعمار وبكل الوسائل ويعتبرها من اهم وظائف المسلمين، ومن جهة اخرى يطرح فكرة الوحدة الاسلامية كوسيلة ناجعة في المواجهة مع هذه الظاهرة المشؤومة. يقول في هذا الصدد: «أمر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتنّ عليهم بنعمة الاخوة، بعد أن كانوا أعداء ونطق الكتاب الالهي: (إنما المؤمنون اخوة)»[١٣]. ويقول في مقام آخر: «كل هذه الرزايا التي حطّت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ماكان قاذفنا ببلائها، ورامينا بسهامها، إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه»[١٤].

لقد ادرك السيد جمال الدين الطبيعة التوسعية للغرب وأطماعه في البلاد الاسلامية، وشدّد على أن لا مفر أمام المسلمين ولا مناص لهم سوى ان يتّحدوا

ويتلاحموا، يقول: «المبصر بنور الله يعلم انه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين، هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا مخرقة، والقرعة تضرب بين الغرباء على مابقي في أيدينا ثم لا نبدي حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندّعي مع هذا اننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد»[١٥].

ثم يأتي مجال الدين على الدور الاساسي لعلماء الدين في الدفع بمسيرة الوحدة الاسلامية قدماً ووظيفتهم في هذا المضمار ، مؤكداً على انه ينبغي لعلماء الدين قيادة الامة في هذه المعركة المقدسة.

من جهة اخرى يؤكد على ضرورة الارتقاء بالقدرات الذاتية التي تتمتع بها الامة الاسلامية، في اشارة ذكية منه الى اهمية الاستفادة من النتائج الايجابية التي توصلت اليها سائر الامم في شتى الميادين، ما يعني ان مناهضته للغربيين لم تكن الا لمواقفها الاستعمارية.

لقد بذل السيد جمال الدين جهداً كبيراً للكشف عن نوايا المستعمرين – لاسيما الاستعمار الانجليزي – وأطماعهم في العالم الاسلامي، وتبيين اهدافهم الخبيثة ومقاصدهم الدنيئة، وصدرت عنه مقالات متعددة في هذا المجال نذكر منها: «سياسة انجلترا في الشرق»[١٦]. و«مقاصد انجليزية في مصر»[١٧]، و«حيلة انجليزية»[١٨]، و«زلزال الانجليز في السودان»[١٩]، و«الانجليز في السودان»[٢٠]، و«المسألة المصرية والانجليزية»[٢١].

## الوحدة الاسلامية في افكار السيد جمال الدين الاسد آبادي

لقد كان السيد جمال الدين بصيرا بواقع الجتمعات الاسلامية وما تعاني من مشاكل وأزمات، ورأى ان الحل الامثل للخروج منها يكمن في التركيز على وحدة المسلمين. وعلى هذا يعتبر السيد جمال الدين أول من أسس لفكرة

الوحدة الاسلامية؛ بحيث ان هذه الفكرة قد سجلت بأسمه، وتعتبر جريدته المشهورة «العروة الوثقى».. وخاصة مقالاتها الافتتاحية – حصيلة افكار السيد جمال الدين الوحدوية، تلك الافكار التي تكاد تبدو أبعد بكثير من تطلعات الشيخ محمد عبده، وبالرغم من ان تلك المقالات كانت خليطا من الافكار المذهبية والعرفانية والسياسية، إلا انه كان يسعى من خلالها الى رسم الخطوط العريضة لمشروع الوحدة، مروراً بوضع الخطط، وانتهاءً بخطوات التطبيق على ارض الواقع[٢٢]، مضافاً الى انه كان يستهدف تهيئة الاجواء أمام الرأي العام الاسلامي والتمهيد لمرحلة الوحدة الاسلامية الشاملة.

يقول الاستاذ مرتضى مطهري في هذا السياق: «يبدو ان أول من رفع شعار الوحدة الاسلامية بوجه الغربيين كان هو السيد جمال الدين، ولم يكن يقصد من هذه الوحدة اتحاد المذاهب، كونها مسألة غير عملية، بل كان يرمي الى خلق جبهة سياسية يقف فيها المسلمون صفاً واحداً امام المعتدين»[٢٣]، ويضيف: «ان الترويج لفكرة القومية واشاعة مصطلحات من قبيل القومية العربية والقومية الايرانية والتركية والهندية وغيرها في العالم الاسلامي ماهي الا من دسائس المستعمرين، كما ان سياسة الضرب على الوتر الطائفي وتشديد النزاعات المذهبية بين الشيعة والسنة، وتقسيم البلاد الاسلامية الى دول صغيرة ومتنافسة – بطبيعة الحال – لم تكن سوى خطة استراتيجية من أجل القضاء على تلك الفكرة القاصمة لظهور المستعمرين، ألا وهي فكرة الوحدة الاسلامية»[٢٤].

وعلى هذا الاساس نرى تأكيد السيد جمال الدين على قضية الوحدة الاسلامية، واعتبارها من أنجع وسائل المجابهة مع الخطط والنوايا الغربية الاستعمارية الهادفة الى تقطيع الكيان الاسلامي. وفي مقالة له بعنوان «الوحدة الاسلامية»، يعتبر السيد جمال الدين اختلاف المسلمين حافزاً للاجانب الى

محاولات الهيمنة على العالم الاسلامي[٢٥]، ويؤكد على ان:

«الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين، لا يحتاجون فيه الى استاذ يعلّم، ولاكتاب يثبّت، ولا رسائل تنشر»[٢٦]، ومن الواضح ان هذه الدعوة الى الوحدة ليست من أجل إقامة حكومة اسلامية موحدة لكل المسلمين، وقد تنبّه هو بنفسه الى عدم امكانية تحقيق هذا الامر مصرّحاً: «لا ألتمس بقولي هذا ان مالك الامر في الجميع شخصاً واحداً، فان هذا ربما كان عسيراً»، مضيفاً: «ولكني أرجو ان يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه، إلا ان هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات، هذا آن الاتفاق، هذا آن الاتفاق»[٢٧].

وفي مقام آخر، ينتقد السيد جمال الدين علماء الامة لعدم تحملهم أعباء مسؤولياتهم الخطيرة في المجال الوحدوي، وتقصيرهم في انجاز وظائفهم، مشدداً على أهمية دور العلماء في قيادة الامة الاسلامية نحو الوحدة، ويقول: «وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع ان ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية، ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتزّ أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر»[٢٨].

وبصورة عامة، فلقد قام السيد جمال الدين طوال حياته بنشاطات مكثفة في سبيل وحدة المسلمين، وبذل الكثير من اجل تحقيق هذا الهدف، ولم يفقد الامل حتى اللحظة الاخيرة.

وفي أول عدد من جريدة «العروة الوثقى» طرح السيد جمال الدين مبادرة تشكيل رابطة اسلامية تضم العلماء والخطباء والائمة والوعاظ من جميع انحاء العالم، وتشتمل على فروع لها في سائر البلدان ، على أن تكون مكة المكرمة مركزا لانعقاد جلساتها، ويوضح أهدافه المتوخاة من ذلك بقوله: «حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الامة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها، ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع»[٢٩]، حتى ان بعض الباحثين يعتقدون ان السيد قد رتب فعلا لانعقاد مؤتمر لهذه الرابطة، وانه تم خلاله تشكيل لجنة عرفت بلجنة «ام القرى»، وهذا الاعتقاد غير بعيد عن الواقع خصوصا اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار اهتمامه البالغ بمسألة الوحدة الاسلامية[٣٠].

لقد كان السيد جمال الدين يعتقد ان اتحاد المسلمين هو من ضرورات الدين الاسلامي، وان وحدة العالم الاسلامي مما لابد منه حفاظاً على كيان الامة الاسلامية وصوناً لها امام الخناجر الاستعمارية المسمومة التي لا تفتأ تفتك بهم من كل الجهات[٣١]، وتأتي مباشرته بنشر جريدته المشهورة «العروة الوثقى» ومن ثمَّ «ضياء الخافقين» في هذا السياق، وبذلك يكون قد أدى دوراً بارزاً في النهوض بالثقافة الاسلامية نحو الانفتاح والازدهار.

ان اصرار السيد جمال الدين على ضرورة الوحدة الاسلامية ودعواته المستمرة لسائر الفرق والمذاهب الاسلامية للمضي قدماً في هذه المهمة وجعلها في مقدمة اولويات برامجهم السياسية والاجتماعية، إن دلَّ على شيء فانما يدل على عقلانية هذا الرجل وتمتعه بفكر راقٍ ورؤية ثاقبة، وان مقالاته في «العروة الوثقى» لهي أروع بيان لروح الوحدة الاسلامية، وأبلغ ما سُطرَّ في مضمار الادبيات الوحدوية.

لقد كان السيد جمال الدين يعتقد بان الغرب يستفيد من سوء الاوضاع الداخلية للعالم الاسلامي في سبيل تحكيم سيطرته على البلدان الاسلامية، وان على المسلمين الدفاع عن هيبة الاسلام وعظمته، وكان يرى في التعصب الطائفي اكبر خطر يمنع المسلمين دون قيامهم بهذا الواجب، ومن هذا المنطلق نراه يصر على اهمية الاصلاح ونبذ التعصبات والخرافات.

يقول الاستاذ مطهري: «يمكن القول بان اهداف السيد الاصلاحية والمجتمع الاسلامي المثالي الذي كان يسعى إليه تتلخص في امة قوامها الوحدة والتآخي، والتضامن المعنوي والفكري والثقافي، لا يهمها التباينات العرقية واللغوية والجغرافية والمذهبية، امة تتفاعل مع الاحداث والمستجدات، وتتواصل مع التقدم العلمي والتقني، وتقتبس من افرازات الحضارة الغربية من منطلق اسلامي وروح اسلامية لا من ذهنية غربية، امة يحكمها الاسلام البكر النقي من علائق الازمان، امة تستعيد روحها الجهادية وتشعر بالفخر والاعتزاز، امة متحررة من قيود الاستعمار والاستبداد وتأبى الخضوع للظلم والاستعباد»[٣٢].

وكيفما كان، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها السيد جمال الدين في سبيل الوحدة الاسلامية المبتنية على التعاليم الاسلامية الصحيحة، إلا انه لم يوفق في ايجاد آلية تمهد الى تطبيق تلك الفكرة على أرض الواقع، وفي رسالة له – في اواخر حياته – الى الشيخ عبدالقادر المغربي يقول: «لقد استجمعت افكاري المتشتتة وتصوراتي المتناثرة، فتأملت نحو الشرق والشرقيين... وسقت بطاقتي الذهنية نحو تشخيص ما بالشرق من داء من أجل تدبير ما ينفعه من دواء، فتوصلت الى ان افتك داء يعاني منه الشرقيون هو تشتت افكارهم، وعدم توافق آرائهم حول مسألة الاتحاد، لابل ان اتفاقهم هو على ايجاد الاختلاف»[٣٣].

لقد سعى السيد جمال الدين جاهداً في سبيل نشر معالم الايمان الحقيقي،

الذي هو ايمان المسلمين المقتدرين، لا ذاك الايمان المتواجد في المجتمعات الاسلامية المستعمرة، وعليه ينبغي القول ان ماكان السيد جمال الدين يرمي اليه – من الناحيتين الدينية والفلسفية – هو الايمان المؤدي بالفعل الى اعتلاء الامة الاسلامية، لا ذلك الذي يزيد في آلامها وجراحها.

**٢- الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ – ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م)**

يعد الشيخ محمد عبده من الشخصيات المؤثرة في مجال الوحدة الاسلامية وأحد أبرز زعماء هذه الحركة، ويلقب – خاصة عند أهل السنة – بـ «المصلح الكبير»، كما ويعد من اكثر تلامذة السيد جمال الدين الاسد آبادي تأثّراً باستاذهم، حيث يلاحظ ان رؤيته لمشاكل العالم الاسلامي تتطابق بشكل كبير مع رؤية استاذه، رغم انه كان يختلف معه بشكل ملحوظ في سبل معالجة تلك المشاكل، ويعتقد الاستاذ مرتضى مطهري: «ان ماكان يميز محمد عبده عن السيد جمال الدين: اهتمام الاول بأزمة الفكر العقائدي لدى المسلمين إثر الاصطدام بالحضارة الغربية، فبعد جمود فكري امتد لمئات السنين، فوجئ المسلمون بأزمة لم يستعدّوا لها من قبل»[٣٤]، وعلى هذا الاساس أبدى الشيخ محمد عبده اهتماماً بالغاً بقضية الاصلاح الفكري في مجال التعاليم العقائدية حسب المقتضيات الزمانية.

اشتملت مسيرة الشيخ محمد عبده الاصلاحية على مرحلتين رئيستين، شملت الاولى فعاليات سياسية على نطاق واسع، واختصت الثانية بالمجالات الثقافية والتعليمية، ورغم ان فعالياته السياسية قد حازت على جزء كبير من مسيرته الاصلاحية، لكنه بعد أن ابتعد عن السيد جمال الدين، وانقطعت آماله بنجاعة الفعاليات السياسية، انتهج منهجاً آخر وتركزت فعالياته على المجالات الثقافية.

وحسب اعتقاد الشيخ محمد عبده فانه لا يمكن احداث تغييرات جذرية على

الساحتين السياسية والاجتماعية قبل بلوغ المجتمع مستوى النضوج الفكري، فتراه يؤكد على اهمية تعليم وتهذيب المجتمع الاسلامي من اجل القضاء على الخرافات والبدع التي عدها من اهم عوامل تخلف المسلمين واختلافهم، وبالتالي تتهيأ الارضية اللازمة لتحقيق الوحدة الاسلامية ويكون بمقدور المسلمين الاستيفاء لمتطلبات العصر الحديث. وحسب الاستاذ مطهري فان محمد عبده قد أحسّ بتلك المسؤولية التي يحس بها عالم الدين[٣٥].

ويلاحظ ان رؤية الشيخ محمد عبده لأسباب ضعف العالم الاسلامي وتمزق شمل المسلمين تتطابق ورؤية السيد جمال الدين، فقد كان يرى في ابتعاد المسلمين عن العقلانية أحد أبرز العوامل التي انعكست بصورة سلبية على تواصلهم مع المتطلبات المستجدة، وان الفكر الاسلامي في صدر الاسلام كان متطابقا مع الاصول والمعايير العقلية، وان ايمان المسلمين آنذاك كان نابعاً عن استنتاجات عقلية وفكرية صحيحة، مشيراً الى انقسام الصف الاسلامي وان بوادره قد ظهرت منذ عهد الخليفة الثالث، تلك الفترة التي برزت فيها ظاهرة الاحاديث الموضوعة، كما ظهر أفراد قاموا بدس افكارهم الجاهلية في الدين الاسلامي، ومهدوا لايجاد شبهات وتشكيكات اعتقادية، كل هذا وذاك أدى الى صراع بين اتباع منهج العقل وأتباع منهج النقل، كلٌّ يدافع عن مشربه، حتى بلغ ذلك حد الافراط فجعلوا العقل ندا للنقل، ما أدى شيئاً فشيئاً الى إلغاء دور العقل من المجالات الدينية والاعتماد على التقليد، وبالتالي الجمود الفكري عند المسلمين وتوقف الحركة العلمية، ومما زاد في الطين بلّة جهل الطبقة الحاكمة وظهور علماء مزيفين عملوا على تشويش أفكار المسلمين وأبعدوا العقلانية عن جميع المجالات[٣٦].

وهنا يأتي دور الشيخ محمد عبده في التأكيد على ان علاقة العقل بالنقل ليست علاقة تقابل بل علاقة تكامل، وان الاسلام المبتني على هذه الثنائية

كفيل بالاستيفاء لمتطلبات العصر، معتبراً ان تطبيق الشريعة الاسلامية مع واقع العصر الحديث يعتمد على اصلين: التلفيق، بمعنى جعل الاحكام الشرعية اكثر ملاءمة مع القضايا والمسائل الاجتماعية، والاستصلاح، بمعنى انتقاء الحكم الانسب في المورد الخاص، ومن هذا المنطلق شرع في تقييم الاحكام الفقهية على المذاهب الاربعة واختيار الاصلح منها والانسب لحل المسائل الاجتماعية المعقدة[٣٧].

وخلاصة القول: ان الشيخ محمد عبده كان يرى ضرورة احياء التفكر الديني، واعادة تعريف الشريعة على نحو تستوفي احكامها لمتطلبات العصر وضرورات الزمان، وهذه في الحقيقة دعوة منه للاهتمام بالمنهج الاعتزالي كان الشيخ يستهدف بها تفعيل دور الاجتهاد في العالم الاسلامي مرة اخرى.

لقد كان الشيخ محمد عبده – كما هو الحال بالنسبة الى السيد جمال الدين الاسد آبادي – من جملة مفكري الامة الاسلامية الذين واصلوا مسيرتهم نحو التقريب وجعلوه نصب أعينهم، ويتجلى هذا الامر في افكاره ومساعيه وجهوده المبذولة في سبيل نبذ التعصبات المذهبية والطائفية، كما وان مباشرته بشرح نهج البلاغة تعد مبادرة هامة من جانبه استهدفت التقريب بين المذهبين الشيعي والسني، و«سابقة تحمل في طياتها الكثير من المعاني والدلالات على منهج المرونة والتساهل المذهبي لدى محمد عبده وتمسّكه بمبادئ الوحدة الاسلامية» حسب الدكتور عنايت[٣٨].

ان اشادة الشيخ محمد عبده بالامام علي (ع) في مقدمة نهج البلاغة لَهو امر جدير بالملاحظة والاهتمام، وبعد أن يثني على علم الامام وحكمته وشجاعته وبلاغته يعود ويقول:

«وليس في أهل هذه اللغة إلا قائل بان كلام الامام علي بن أبي طالب هو أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكلام نبيه(ص) وأغزره مادة وأرفعه

اسلوباً وأجمعه لجلائل المعاني»[٣٩].

وفي سياق تقييمه للمفاهيم السامية والحكم المتعالية لنهج البلاغة يقول: «كلما انتقلت من موضع الى موضع احس بتغير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدني في عالم يغمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية، توحي اليها رشادها، وتقوم منها مرادها، وتنفر بها عن مداحض المزال الى جوار الفضل والكمال.. وأحياناً كنت أشهد ان عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً فصل عن الموكب الالهي، واتصل بالروح الانساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى الملكوت الاعلى ، وغابه الى مشهد النور الاجلى، وسكن به الى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس، وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة، وأولياء أمر الامة، يعرّفهم مواقع الصواب، ويبصرهم مواضع الارتياب، ويحذرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم الى دقائق السياسة، ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم الى منصات الرئاسة، ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير»[٤٠].

مضافاً الى ذلك، يمكن ملاحظة مدى تأثر الشيخ محمد عبده بالامام علي(ع)، كما ونظرته البعيدة عن الحساسية تجاهه في أثرين آخرين له هما: «كلمات الامام»، و«مقتبس السياسة» الذي هو شرح لعهد الامام علي(ع) الى مالك الاشتر[٤١].

ان اهتمام الشيخ محمد عبده بمسألة الاجتهاد وتأكيده على ضرورة الاستفادة من الاستنباطات العقلية في طلب المعارف الدينية، كان في حد نفسه ذا أثر كبير على التقارب الشيعي السني، نظراً الى ميول التفكر الفقهي والفلسفي الشيعي الى هذا الاتجاه، فتراه «يدافع باستمرار عن أصل الاجتهاد، ولم يتوقف عن انتقاده للتقليد بمعنى التعبد بالآراء من دون تفكر واقتناع، وفي

الحقيقة فانه كان يحاول اثبات ان الاسلام دين العقلانية»[٤٢].

ومن الملاحظ ان هذا المنهج المعتدل لدى الشيخ لم يكن لينحصر في النطاق الاسلامي وحسب، بل انه تعداه الى مجالات اخرى، فبعد رجوعه من باريس الى لبنان بادر الى تأسيس جمعية «التقريب بين أهل الاسلام وأهل الكتاب» بمساعدة البعض ممن كان ينتهج منهجه الفكري، وكان هدفه من ذلك التقريب بين معتنقي الاديان السماوية[٤٣]، حيث كان يعتقد ان الاصلاحات البروتستانتية قد جعلت المسيحية أقرب الى الاسلام من أي وقت مضى، ومما يؤكد سلوكه هذا المنهج المعتدل ما يمكن ملاحظته في جملة من فتاواه التي أثارت الجدل في الاوساط الدينية آنذاك.

ويعتقد بعض الباحثين ان الشيخ قد تخلّى عن اهدافه ورؤاه الوحدوية في المرحلة الثانية من مسيرته الاصلاحية، وقام بالتركيز على الشؤون الاجتماعية وقضايا الاصلاح الاخلاقي والتربوي مع احتفاظه بمسلك الاعتدال، سيّما بعد ان توقفت جريدة «العروة الوثقى» عن الانتشار[٤٤]، وكيفما كان فلابد من الاذعان بتباين منهج الشيخ محمد عبده – خصوصاً بعد توقف انتشار الجريدة المذكورة – عن منهج استاذه السيد جمال الدين ، فقد تابع أهداف الوحدة الاسلامية في مجالات التربية الاخلاقية الدينية، بخلاف السيد الذي كان مهتماً بالمجال السياسي.

ويبدو هذا الاختلاف في الاسلوب من كلام الشيخ محمد عبده نفسه حيث يقول: «كان السيد جمال الدين يمتلك من الطاقات الفذة ، لو صرفها في المجالات التعليمية والتربوية لاستفاد منه الاسلام بصورة اكثر ، وفي باريس اقترحت عليه فكرة اعتزالنا السياسة والهجرة الى مكان بعيد عن الرقابة الحكومية، ثم نقوم باختيار مجموعة من التلاميذ حسب مذاقنا الخاص ونعمل على تأهيلهم، حينئذ لا يتجاوز الامر اكثر من عشر سنوات حتى نحصل على

تلاميذ يقتفون اثرنا في حلنا وترحالنا، ويساعدونا في انجاز مشاريعنا الاصلاحية على النحو المطلوب ونشرها في سائر بقاع العالم الاسلامي على أتم وجه، إلا ان السيد جمال الدين ردّ على اقتراحي هذا قائلاً: انك تتكلم بكلام يورث الاحباط واليأس»[٤٥].

وعلى كل حال، فلابد من الاذعان بان الشيخ محمد عبده، وخلافاً لفترة اصطحابه استاذه السيد جمال الدين – خاصة أثناء انتشار جريدة العروة الوثقى وبذله الجهد الكبير في سبيل الوحدة الاسلامية، فان اهتماماته تركزت فيما بعد على الميادين الثقافية، فخص الاولوية لهذا المجال، وبذا يكون قد افترق في مسيرته عن السيد جمال الدين. وبصورة عامة: ان السيد والشيخ اشتركا في الهدف، ألا وهو الوحدة الاسلامية واصلاح حال المسلمين، لكنهما افترقا في اسلوب تحقيق هذا الهدف.

يقول الاستاذ مرتضى مطهري في هذا الصدد: «ان محمد عبده والسيد جمال الدين اختلفا من جهتين: الاولى، ان افكار السيد كانت تتسم بطابع ثوري، اما محمد عبده فقد كان يميل الى الاصلاح بصورة تدريجية، والثانية، ان السيد كان قد جعل المجابهة مع الاستبداد والاستعمار اولى برامجه، معتقدا انه لابد من الأبتداء بهما وبقلع جذورهما، أما محمد عبده فقد كان يعتقد – وعلى الاقل في اواخر حياته وبعد الافتراق عن السيد في باريس والعودة الى مصر – بأن الاولوية في سبيل أي تغيير سياسي هي مع النهوض بمستوى التعليم والتربية الدينية، وان هذا الامر مقدم على التعليم والتأهيل السياسي»[٤٦].

وكما يقول الدكتور عنايت، فانه لابد من اعتبار حصاد فعالية كل منهما متمماً للآخر ومكملاً له، لاسيما اذا ما لاحظنا اتفاقهما على جملة من المسائل، كضرورة الرجوع الى المصادر الدينية الاولية بشكل مباشر، والاستعانة بالعقل في توجيه احكام الشريعة والسعي لتطبيقها بصورة تتلاءم

ومتطلبات العصر، ونبذ الفئوية والتشرذم، والتأكيد على ضرورة الاجتهاد، والسعي لمعرفة روح الدين الاسلامي الذي ظل سجين القواعد الهشة والافكار المتحجرة لعلماء السلطة المأجورين[٤٧].

**٣- عبدالرحمن الكواكبي (١٢٧١ – ١٣٣٣هـ /١٨٥٤ – ١٩٠٢م)**

يعد السيد عبدالرحمن الكواكبي أحد أبرز المصلحين في التاريخ الاسلامي المعاصر، وهو من أحفاد الشيخ صفي الدين الاردبيلي ومن بني عمومة الشاه اسماعيل الصفوي.

ويعتبر الكواكبي من أبرز المتأثرين بمدرسة «العروة الوثقى»، فقد تأثر كثيراً بالسيد جمال الدين وبافكاره الاجتماعية والسياسية[٤٨]، رغم انه لم يحضر عنده – كما يبدو – ، كما وتعد أفكاره من الافكار الهامة والمؤثرة على الصعيد الوحدوي.

وكسائر المصلحين، كان الكواكبي يعتصر تألماً لما تعانيه أمة الاسلام من أزمات، فاهتم بايضاحها وسعى الى معالجتها ، معتبرا ان السبب الحقيقي لانحطاط المجتمعات الاسلامية وتخلفها وتفرقها يكمن في مقولة الاستبداد، وان الاستبداد هو ايضا السبب وراء كبت طاقات الامة الاسلامية وحسر قواها، وقد شرح رؤيته حول الاستبداد في كتابه المشهور «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، كما تطرق الى سبل معالجة هذه الظاهرة في كتابه الآخر «ام القرى».

دخل الكواكبي مصر – كما يقوله هو في مقدمة كتاب طبائع الاستبداد – في عهد الخديوي عباس الثاني، ثم قام بنشر مقالات حول الاستبداد والعوامل المؤدية اليه في الصحف والمجلات المختلفة، ولم يكن يستهدف بها – والكلام له – ظالماً بعينه ولا حكومة وامة مخصصة، مضيفاً : «وانما أردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على

ذويه، ولي هناك قصد آخر، وهو التنبيه لموارد الداء الدفين، عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم أنهم هم المتسببون لما حلَّ بهم، فلا يعتبون على الأغيار، ولا على الاقدار، انما يعتبون على الجهل وفقد الهمم والتواكل، وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات»[٤٩].

ويتطرق الكواكبي في كتابه هذا الى العوامل الرئيسية لتكوين معالم الاستبداد وضوابط التخلص منه، معتبراً ان القرآن الكريم مليء بتعاليم من شأنها القضاء على الاستبداد واحياء العدالة، وان الاسلام دين حرٌّ سهلٌ سمح، يضع الآصار ويفك الاغلال ويبيد الميزة والاستبداد، مشيرا الى سنة رسول الله(ص) والخلفاء الراشدين وان القرارات آنذاك كانت تتخذ على اساس التشاور بين اهل الحل والعقد.

وفي سياق تحليله للتاريخ على اساس التشاور بين اهل الحل والعقد.

وفي سياق تحليله للتاريخ الاسلامي يشير الكواكبي الى عهد النبي(ص) وعهد الخلفاء الراشدين حيث شاع العدل والمساوات والقسط، والاخاء والاحسان والتحابب، وان المستبدين من الخلفاء والملوك الاولين قد انحرفوا عن تعاليم القرآن، وافتروا على الله ورسوله، وزرعوا الفتنة والبغضاء في قلوب المسلمين.

ورغم انه لا يصرّح بكون الاستبداد بحد ذاته مانعاً أساسياً عن تحقيق الوحدة الاسلامية، إلا ان المتبادر من كتابه هذا انه يعتبره حاجزاً مهماً يحول دونها، نظراً الى ما يمكن ان يترتب عليه من نتائج سلبية تمنع عن الوحدة الاسلامية، وهذه الرؤية هي في الحقيقة اشارة الى نقطة أساسية محتواها تعذر شمولية الاصلاحات في المجتمعات الاسلامية من دون القضاء على معوقاتها سواء من الناحية الفكرية او الثقافية او السياسية.

ويعتقد الكواكبي ان التاريخ الاسلامي قد احتوى على نماذج عديدة مهدت لانحرافات عقائدية واسعة، مؤكدا على لزوم الرجوع الى أصل التوحيد

باعتباره محطماً لقيود الأسر والعبودية، وان المسلمين قد ابتلوا بالاسر حينما كفروا بنعمة المولى وظلموا انفسهم.

ومما هو جدير بالتأمل في افكار السيد عبدالرحمن الكواكبي، رؤيته الخاصة بمعضلات الشرق والمجتمعات الشرقية، ذلك انه يرى ان الاستبداد هو أساس جميع محنهم ومصائبهم، يقول في احدى فصول «طبائع الاستبداد»: «فمن قائل مثلا: الشرق مريض وسببه الجهل، ومن قائل: الجهل بلاء وسببه قلة المدارس، ومن قائل: قلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على انشائها من قبل الافراد أو من قِبل ذوي الشأن .. والحقيقة ان هناك سلسلة أسباب اخرى حلقتها الاولى: الاستبداد. وكاتب آخر يقول: الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين، ثم يقف، مع أنه لو تتّبع الاسباب لبلغ الى الحكم بأن التهاون في الدين أولاً وآخراً ناشيءٌ من الاستبداد، وآخر يقول: ان السبب فساد الاخلاق، وغيره يرى أنه فقد التربية، وسواه ظن أنه الكسل، والحقيقة ان المرجع الاول في الكل هو الاستبداد».

ويقول في فصل «الاستبداد والمجد»: «للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند الفانين في الله تعالى، وتعادل لذة العلم عند الحكماء.. وقد أشكل على بعض الباحثين أي الحرصين أقوى: حرص الحياة أم حرص المجد؟ والحقيقة التي عوّل عليها المتأخرون.. هي التفضيل، وذلك ان المجد مفضل على الحياة عند الملوك والقواد وظيفةً، وعند النجباء والاحرار حمية، وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء والاذلاء طبيعة»، الى أن يصل الى سيرة الأئمة المعصومين ويقول: «وعلى هذه القاعدة يكون ائمة آل البيت – عليهم السلام – معذورين في إلقاء أنفسهم في تلك المهالك، لأنهم لما كانوا نجباء أحراراً، فحميتهم جعلتهم يفضّلون الموت كراماً على حياة الذل».

ويتعرض الكواكبي الى تاريخ الانبياء، معتبراً ان رسالتهم الى الانسانية

ابتدأت بكسر قيود الاستبداد والاستعباد، قائلاً: «وقد سلك الانبياء – عليهم السلام – في انقاذ الامم من فساد الاخلاق مسلك الابتداء أولا بفكّ العقول من تعظيم غير الله والاذعان لسواه، وذلك بتقوية حسن الايمان المفطور عليه وجدان كل انسان، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الانسان كيف يملك إرادته؛ أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد، وسدّوا منابع الفساد، ثم بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون الى الانسان بأنه مكلّف بقانون الانسانية، ومطالب بحسن الاخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية».

ويتطرق الكواكبي الى مسألة الوحدة مشدداً على أهميتها ومخاطباً المسلمين: «تشتكون فقد الرابطة ولكم روابط من وجوه لا تفكّرون في إحكامها».

ويخصص الكواكبي الفصل الاخير من كتابه هذا لسبل معالجة الاستبداد والتخلص منه، مؤكدا على ضرورة مقاومته بالحكمة وبصورة تدريجية ، لا بالشدة والعنف، نظرا الى كونه مسألة شائكة ومعقدة، كما ويؤكد على أهمية توجيه الافكار نحو تأسيس العدالة.

وينبغي الاشارة في هذا المقام الى ان بعض مفردات «طبائع الاستبداد» توحي الى توجهات قومية للكواكبي، حيث يدعو العرب المسلمين وغير المسلمين الى الوحدة، لكن لا يخفى ان هذه المقولة لاتكاد تتنافى مع مفهوم الوحدة الاسلامية، نظرا الى الظروف الخاصة التي كان يعيشها العالم العربي آنذاك، فارتأى الكواكبي استعمال هذه الصيغة الخطابية لمواجهة الاستبداد والاستعمار، وعليه يمكن عد هذه المسألة في اطار كونها احدى الخيارات المطروحة في سبيل الوحدة الاسلامية، والظاهر ان كتابه الآخر «ام القرى» يندرج ايضاً في هذا السياق.

## الكواكبي والوحدة الاسلامية

رغم قوة طرح مشروع الوحدة الاسلامية في أفكار أمثال السيد جمال الدين الاسد آبادي والشيخ محمد عبده، إلا ان الكواكبي – ونظرا الى إدراكه العميق لهموم العالم الاسلامي – يتناول هذا الموضوع بدقة وعمق في كتابه المعنون «ام القرى» في اطار تشكيل اتحاد اسلامي يكون مقره «مكة المكرمة»، والاعداد لمؤتمر اسلامي يتكون أعضاؤه من النخب الاسلامية.

وينقل الكواكبي في هذا الكتاب وقائع المحاورات والمناقشات الدائرة بين اعضاء المؤتمر الاسلامي حول اسباب ضعف المسلمين وتخلفهم وانحطاط المجتمعات الاسلامية، في سبيل معالجتها بصورة تدريجية.

ويرى الاستاذ محيط طباطبائي ان الكواكبي «وكأنه قصد بكتابه «ام القرى» السيد جمال الدين، تأييداً لفكرة الوحدة الاسلامية وتوضيحاً لمعالمها ولسبل تطبيقها على أرض الواقع»[٥٠].

ويلاحظ ان الكتاب يتطابق كثيراً مع الاسلوب الفكري والموضوعي للسيد جمال الدين، الا ان هذا الامر لا يدل على ان كاتبه هو السيد جمال الدين، رغم عدم تصريح المؤلف باسمه والاكتفاء بالتوقيع باسم «السيد الفراتي»، إذ ان السيد جمال الدين كان يستعمل أحياناً كلمة «السيد» للتعريف عن نفسه، ولم يكن يستعمل عبارة «السيد الفراتي»[٥١]، وعلى كل حال فالاعتقاد بان الكواكبي قد كتب هذا الكتاب قاصداً به السيد جمال الدين في محله، خاصة مالو أخذنا بنظر الاعتبار ان أساس فكرة تشكيل المؤتمر في مكة المكرمة يرجع الى السيد جمال الدين خلال احدى مقالاته في جريدة «العروة الوثقى».

ان ما ينقله الكواكبي في هذا الكتاب عن لسان حال المسلمين، من الاتراك والتتار والافغانيين والايرانيين والهنود وغيرهم، كأنما هو في الواقع حصاد التجارب التي اكتسبها السيد جمال الدين من خلال رحلاته الطويلة والبعيدة

في أرجاء الممالك الشرقية والغربية، طوال بضع وثلاثين سنة، ومع ان الكواكبي لا يصرح بصورة مباشرة بافكار السيد جمال الدين، لكن ينبغي القول بان ما حرّره السيد عبدالرحمن الكواكبي هو أول انعكاس قوي ومباشر عن افكار السيد جمال الدين الوحدوية[٥٢].

وكما ذكرنا، ينقل الكواكبي في هذا الكتاب تفاصيل الاجتماع المنعقد في مكة المكرمة، والذي يهدف الى تقييم اوضاع المسلمين حيث يضم ممثلين عنهم من شتى البقاع، كالقدس الشريف والشام واليمن ونجد والمدينة ومكة وايران وانجلترا وروما والهند وافغانستان والصين وتركيا وغيرها من المناطق، ويؤدي السيد الفراتي في هذا الاجتماع دور كاتب الجلسة، كما يترأسه العضو المكي، وبدوره يقوم كل مبعوث بطرح افكاره وآرائه.

ومع غض النظر عن حقيقة هذا المؤتمر، وانه هل انعقد فعلاً او ان الكواكبي يحكي عنه بصورة مجازية[٥٣]، فان خلاقية الكواكبي في اطروحته هذه تزيد في فرص نجاح مثل هذا المؤتمر قياساً بسائر الاطروحات الاخرى، وهذا ما يضاعف من أهمية الكتاب.

ويؤكد الكواكبي في مقدمة الكتاب على ضرورة تشكيل احزاب وتجمعات وتنظيم المؤتمرات من اجل متابعة سير الفعاليات ميدانياً.

وتشير «ام القرى» الى مستوى إلمام الكواكبي بمشاكل الشارع الاسلامي، فنراه – ومن خلال مناقشات المؤتمرين – يقوم بعمل احصائية متكاملة – نوعاً ما – حول آلام المجتمعات الاسلامية.

ومن أهم المشاكل المطروحة في هذا المؤتمر – حسب الكواكبي – الانحراف في الرؤية العقائدية، الاستبداد وفقدان الحريات، ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم المبالات بأحكام الدين، عدم ايفاء علماء الدين لوظائفهم، فقدان القيادة، الفقر المادي، الجهل، عدم الاهتمام بتعليم وتهذيب

النساء، الفساد الاقتصادي والاداري[٥٤].

ومن النقاط المهمة الاخرى في كتاب «ام القرى» ان فعاليات المؤتمر المذكور لا تنحصر في بحث ومناقشة تلك المشاكل وحسب، بل تتعدى الى ايجاد السبل الكفيلة بمعالجتها عن طريق ايجاد منظمة دائمة تعنى باصلاح أوضاع المسلمين، وحسب الكواكبي فهذه المنظمة ينبغي ان تكون مستقلة وغير تابعة لأية حكومة، كما يجب ان تكون محايدة لا تتعصب لأي مذهب أو طائفة[٥٥].

ورغم ما يظهر من عدم مبالاة الانظمة الاسلامية في الترتيب لانعقاد هذا المؤتمر، إلا انه لا يخفى مدى تأثر افكار الاسلاميين المتأخرين بفكرة الكواكبي تلك، وحسب الدكتور عنايت فقد تشكلت منظمات متعددة في القرن العشرين اقتداءً بافكار السيد جمال الدين وعبدالرحمن الكواكبي، كان لها دور بارز وفعال في معالجة القضايا التي تهم العالم الاسلامي[٥٦].

## ثمرة البحث

لقد واجه العالم الاسلامي خلال القرنين الماضيين معضلتين اساسيتين، تمثلت الاولى في التخلف، والثانية في الزحف الاستعماري الغربي، وكرد فعل فقد ظهرت خطابات مختلفة من حيث المنهجية في ربوع العالم الاسلامي، أشدها تأثيراً هو الخطاب الاسلامي، لما كان له من دور أساسي في تشكيل معادلات جديدة في البلدان الاسلامية. ويقترح زعماء هذا التيار فكرة الوحدة الاسلامية الشاملة، وغض النظر عن الاختلافات المذهبية والتشرذم الطائفي، والتمسك بالتعاليم والمبادئ الاسلامية دفاعاً عن هوية الامة الاسلامية وثقافتها، ومن أجل المجابهة مع الاطماع الغربية وأهدافها التوسعية.

وبالاضافة الى شرح الحالة العامة للمجتمعات الاسلامية ابان الاستعمار

الغربي، فقد قمنا في هذه المقالة بدراسة رؤى ثلاثة من أوائل المنظرين للتيار الاسلامي وأبرزهم، وخلصنا الى تأكيدهم على ضرورة الرجوع الى تعاليم الاسلام والاصلاح الديني ووحدة الامة الاسلامية في سبيل معالجة أزمات العالم الاسلامي، كلٌّ حسب اسلوبه الخاص.

ومما لاشك فيه فان الخطاب الاسلامي يعتبر خياراً لا بديل عنه في التصدي للغزو الغربي الشامل، وان تجارب المسلمين طوال القرنين الماضيين خير دليل على اثبات هذا المدعى.

ورغم ان الثلاثة لم يشهدوا صحوة الاسلام بام أعينهم، الا ان الامة الاسلامية قد شهدت بمرور الزمان مداً اسلامياً واسع النطاق أثبت ان الاسلمة هي المنقذ الوحيد والخيار الفريد أمام المسلمين للخروج من أزماتهم الداخلية والخارجية.

## الهوامش:

* – تعريب الاستاذ الشيخ محمد الغروي النائيني

١ – عبد الهادي الحائري، ايران وجهان اسلام، مشهد، انتشارات آستان قدس رضوي، ١٣٦٨ هـ.ش ، ص ٨٥.

٢ – حميد عنايت، انديشه‌هاي سياسي در اسلام معاصر، ترجمة: بهاء الدين خرمشاهي، طهران، انتشارات خوارزمي، الطبعة الثالثة، ١٣٧٢هـ. ش ، ص ٨٠.

٣ – المصدر السابق، ص ٧٩.

٤ – مرتضى مطهري، نهضتهاي اسلامي، مطبعة رودكي، ص ١٦.

٥ – السيد جمال الدين الافغاني، الشيخ محمد عبده، العروة الوثقى، اعداد وتقديم السيد هادي خسروشاهي، طهران، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي، ١٣٧٥ هـ.ش، ص ١٦.

٦ – المصدر السابق، ص ١٣٣ – ١٣٤.

٧ – ابو الحسن جمالي أسد آبادي، نامه‌هاي تاريخي وسياسي، تهران، انتشارات امير كبير، ج ٣، ١٣٦٠، ص ٧٢.

٨ – العروة الوثقى ، مصدر سابق، ص ١٩٥.

٩ – المصدر السابق، ص ١٩٩.

١٠ – المصدر السابق، ص ١٩٧ – ١٩٨.

١١ – المصدر السابق، ص ٢٠٠- ٢٠١.

١٢ – المصدر السابق، ص ٨١ – ٨٢.

١٣ – المصدر السابق، ص ١٤٠ .

١٤ – المصدر السابق، ص ١٤٢.

١٥ – المصدر السابق، ص ١٤٣.

١٦ – المصدر السابق، ص ٢٢١.

١٧ – المصدر السابق، ص ٢٦٧.

١٨ – المصدر السابق، ص ٤١٦.

١٩ – المصدر السابق، ص ٢١٤.

٢٠ – المصدر السابق، ص ٢٤١.

٢١ – المصدر السابق، ص ٣٠٣.

٢٢ – محيط طباطبائي ، نقش سيد جمال الدين أسد آبادي، در بيداري مشرق زمين، قم، مؤسسة دار التبليغ الاسلامي، ١٣٥٠هـ .ش، ص ٩٩.

٢٣ – مرتضى مطهري، مصدر سابق، ص ٢٩.

٢٤ – المصدر السابق، ص ٢٩ – ٣٠.

٢٥ – للمزيد، انظر: العروة الوثقى، مصدر سابق، ص ١٣١ – ١٣٤.

٢٦ – المصدر السابق، ص ١٣٥.

٢٧ – المصدر السابق، ص ١٣٦ – ١٣٧.

٢٨ – المصدر السابق، ص ٩٧.

٢٩ – المصدر السابق.

٣٠ – للمزيد، انظر: السيد أحمد موثقي، استراتژي وحدت در انديشه سياسي اسلام، مكتب التبليغ الاسلامي للحوزة العلمية بقم، الطبعة الثانية، ج ١، ص ٣٣٥ – ٣٣٦.

٣١ – للمزيد، انظر: العروة الوثقى، مصدر سابق، ص ١٣٦ – ١٣٧.

٣٢ – مرتضى مطهري، مصدر سابق، ص ٣٥ – ٣٦.

٣٣ – نقلا عن الوثقى، مصدر سابق، ص ٣٧١.

٣٤ – مرتضى مطهري، مصدر سابق، ص ٤٠ .

٣٥ – المصدر السابق، ص ٤١.

٣٦ – للمزيد، انظر حميد عنايت، مصدر سابق، ص ١٣٢ – ١٣٤.

٣٧ – للمزيد، انظر: المصدر السابق، ص ١٤٠ – ١٤١.

٣٨ – المصدر السابق، ص ١٤٢.

٣٩ – الشيخ محمد عبده، شرح نهج البلاغة، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٢م، ص ١٢.

٤٠ – المصدر السابق، ص ١٠ .

٤١ – مصطفى حسيني طباطبائي ، شيخ محمد عبده، مصلح بزرك مصر، انتشارات قلم، طهران، ١٣٦٢، ص ٤٤.

٤٢ – على اصغر حلبي، تاريخ نهضتهاي ديني – سياسي، انتشارات بهبهاني، ١٣٧١هـ .ش، ص ٦٢.

٤٣ – محمد محيط طباطبائي، مصدر سابق، ص ١١٧.

٤٤ – انظر على سبيل المثال: المصدر السابق، ص ١١٨، وايضاً: حلبي، مصدر سابق، ص ٧٦.

٤٥ – سيد عباس صالحي في تحليله لافكار كل من السيد جمال الدين ومحمد عبده، سيد جمال، جمال حوزهها، قم، انتشارات مكتب التبليغ الاسلامي، ١٣٧٧ هـ .ش.

٤٦ – مرتضى مطهري، مصدر سابق، ص ٤٢.

٤٧ – عنايت، مصدر سابق، ص ١٥٦.

٤٨ – محمد محيط طباطبائي، مصدر سابق، ص ١١٣.

٤٩ – هذه العبارة والعبارات الآتية مقتبسة عن كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لعبد الرحمن الكواكبي.

٥٠ – محيط طباطبائي ، مصدر سابق، ص ١١٤.

٥١ – المصدر السابق.

٥٢ – المصدر السابق، ص ١١٥.

٥٣ – للمزيد، انظر: عنايت، مصدر سابق، ص ٢٧٣ – ٢٧٤.

٥٤ – للمزيد، انظر: محمد جواد صاحبي، مباني نهضت احياي فكر ديني، قم، انتشارات مكتب التبليغ الاسلامي التابع للحوزة العلمية بقم، ١٣٨٠هـ . ش، ص ٣٠٦.

٥٥ – حلبي، مصدر سابق، ص ٢١٥.

٥٦ – عنايت، مصدر سابق، ص ٨٠ .